مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد 14، العدد 56 (خريف 2003)، ص 139

وجهة نظر

ليون هدار*

الإمبريالية الأميركية الجديدة وأوروبا القديمة**

- Max Boot, *The Savage Wars of Peace: Small Wars and the Rise of American Power*. New York: Basic Books, 2002.
- Robert Kagan, *Of Paradise and Power: America and Europe in the New World Order*. New York: Knopf, 2003.
- Charles Kupchan, *The End of the American Era: U.S. Foreign Policy and the Geopolitics of the Twenty-first Century*. New York: Knopf, 2002.

على الرغم من أن نقاش السياسة الخارجية في الدائرة الأوسع يهيمن عليه دبلوماسيون متقاعدون متوسطو العمر وجنرالات وأساتذة جامعات مهووسون ومستشارون مغرورون يظهرون بانتظام في برامج المقابلات التلفزية، فإن السياسة الخارجية في واشنطن هي "صناعة" الشهرة والنجومية. وبين الحين والآخر، تتمخض هذه الصناعة غير المألوفة عن موضات و"صرعات" معينة. ففي أواخر الثمانينات، على سبيل المثال، لم يكن في وسع المرء التنقل في أي حفل كوكتيل في واشنطن من دون الإشارة إلى "انهيار الإمبريالية" في كتاب بول كنيدي "نشوء القوى العظمى وانهيارها" (*The Rise and Fall of Great Powers*). وبعد سقوط جدار برلين، كان يكفي أن يقول المرء "نهاية التاريخ" – وهو عنوان كتاب لفرانسيس فوكوياما – للحصول على عضوية دائمة في صفوف الثرثرة والهذر، ناهيك عن كل الطنين المسموع مؤخراً عن "صراع الحضارات" (*Clash of Civilizations*) لصموئيل هنتنغتون كلما وقع عمل إرهابي قامت به مجموعة من الإسلاميين المتطرفين. ودعونا طبعاً لا نغفل كل أنبياء العولمة، الذين يقودهم توماس فريدمان، من صحيفة "نيويورك تايمز" وصاحب كتاب "سيارة الليكسوس وشجرة الزيتون" (*The Lexus and the Olive Tree*)، والذي ابتكر صناعة خاصة به.

تغيُّر النموذج في واشنطن

حان الوقت، إذاً، لـ "صرعة" جديدة في السياسة الخارجية. ومع تبني إدارة بوش

(*) زميل باحث في دراسات السياسة الخارجية في مؤسسة كاتو بواشنطن العاصمة.

(**) **المصدر:** *Journal of Palestine Studies*, vol. XXXII, no. 4, Summer 2003, pp. 74-82.

لاستراتيجيا عالمية ثورية تقوم على الحفاظ على التفوق العسكري الأميركي وتوجيه الضربات الأحادية الجانب والاستباقية إلى الدول والمجموعات المعادية – نفذت المرحلة الأولى منها فعلاً في العراق – يبدو أن لا مفر من أن تكون "الصرعة" الجديدة هي "الإمبريالية الأميركية" الجديدة. بل يجري الاحتفال بصعود الإمبريالية الأميركية في الأوساط الأكاديمية والإعلامية الأميركية والبريطانية.

وفحوى الرسالة أننا أصبحنا القوة العالمية المهيمنة، ويجدر بنا الاستفادة من ذلك إلى أقصى حد. ويرى البعض أن لدى الولايات المتحدة القوة "الصلبة" (الاقتصادية والعسكرية) والقوة "المرنة" (هوليود، والـــ سي. أن. أن.، وأم. تي. في.) لإقامة هذه الهيمنة. أمّا والحال كذلك، فعلى الأميركيين الاستفادة من هذه القوة لفرض نظام جديد يستند إلى الحضور العسكري الأميركي "الطويل الأمد" (إقرأ: الدائم) في الشرق الأوسط وفي كل أنحاء العالم، على غرار الطريقة البريطانية في القرن التاسع عشر.

بل إن هناك كتاباً يحتفي بهذه الروح الإمبريالية الأميركية الجديدة. وقد أصبحت قراءة "حروب السلام الوحشية: الحروب الصغيرة وبروز القوة الأميركية" (*The Savage Wars of Peace...*)، وهو كتاب يمتدح فضائل إرسال القوات الأميركية لخوض المعارك في شتى أنحاء العالم وإقامة السلام الأميركي العالمي، أمراً مطلوباً من كل من يحاول تحليل النهج العالمي لإدارة بوش. واكتسب مؤلفه ماكس بوت شهرة حقيقية في وسائل الإعلام.

نُشر كتاب "حروب السلام الوحشية" بعد بضعة أشهر فقط من وقوع الهجمات الإرهابية على نيويورك وواشنطن في 11 أيلول/سبتمبر 2001. ويعرض فيه بوت الصورة العامة لبروز القوة العسكرية الأميركية ومبررات استخدامها في البوسنة وكوسوفو وأفغانستان والعراق، فضلاً عن دول أُخرى تشكل جزءاً من محور الشر أو متعاطفة معه، بما فيها إيران. ويرى أن الجمهور الأميركي وقادته كانوا في الماضي يركزون بشدة على أن الدور العسكري الأميركي هو القتال والانتصار في حروب كبيرة، ساخنة وباردة، ضد التهديدات العالمية (ألمانيا النازية واليابان الإمبريالية وروسيا الشيوعية والصين). غير أن على الأميركيين في عالم اليوم الإقرار بوجوب ممارسة قوتهم العسكرية في خوض "حروب صغيرة" وربحها، مثل الحروب التي خاضتها الولايات المتحدة في القرنين التاسع عشر والعشرين في هاييتي ونيكاراغوا والمكسيك والفيليبين.

وهذه الحروب الصغيرة، كما يصفها بوت، ليست ملائمة للانتصارات السريعة والاشتباكات العسكرية القصيرة، وإنما تنطوي بدلاً من ذلك على عملية مطولة لـ "بناء الأمة" – تشمل استخدام القوة العسكرية لتغيير سياسة البلد واقتصاده (مثل دعم المجموعات السياسية والعسكرية المحلية المفضلة، ومقاتلة رجال حرب العصابات،

وتقديم المساعدة الاقتصادية، والمساعدة بنشاط في إنشاء المؤسسات الديمقراطية الرأسمالية). وهو أمر يشبه كثيراً ما ستقوم به إدارة بوش في العراق في الأشهر أو الأعوام المقبلة.

باختصار، لا تنطوي رؤية بوت على تدخلات أميركية خارجية قصيرة الأمد ومشوشة، مثل حروب إدارة كلينتون الصغيرة في الصومال وهاييتي، بل إنه ينبري للدفاع بوضوح عن [فرض] السلام الأميركي (وهذا عنوان الفصل الأخير من كتابه)، ورفض ما أصبح يعرف منذ ذلك الحين بمذهب باول – أي أن على الأميركيين ألاّ يخوضوا سوى الحروب التي تحظى بدعم مهم من الرأي العام الأميركي (بما في ذلك إعلان الحرب بواسطة الكونغرس) وتنطوي على قدر من "المصلحة القومية" والأهداف الواضحة واستراتيجيات الخروج. ويرى بدلاً من ذلك أن دور أميركا في "ضبط الأمن الإمبريالي" يجب ألاّ يعكس بالضرورة التصورات المحدودة لـ "المصلحة القومية"، وإنما يجب أن يشمل لائحة طويلة من أهداف "بناء الأمة" في أعقاب هزيمة العدو، وإنشاء الشروط لاحتلال عسكري أميركي طويل الأمد. وسوف يدار مثل هذا المشروع الطموح للسلام الأميركي في معظمه من جانب الرئيس والجيش، وبتدخل محدود من الكونغرس والرأي العام. ويتوقع أن يرحب معظم الأمم غير الأميركية في العالم بالحضور العسكري الأميركي وفوائده السياسية والاقتصادية، على غرار سكان الجزيرة الوهمية في فيلم "الفأر الذي زأر"، الذي عُرض في ستينات القرن العشرين، إذ أعلنوا الحرب على الولايات المتحدة كي تغزوهم.

المحافظون الجدد والإمبريالية الجديدة

يعمل بوت، الذي أصبح من الأنبياء البارزين للإمبريالية الجديدة، كاتباً في صفحات المقالات الافتتاحية في جريدة "وول ستريت جورنال"، وهي – إلى جانب "ويكلي ستاندرد" و"أميركان إنتربرايز إنستيتيوت" – معقل بارز من معاقل حركة المحافظين الجدد الأميركيين التي يهلل أعضاؤها للغزو الأميركي للعراق، فضلاً عن الدعم الأميركي لإسرائيل. لقد كان بوت، في الواقع، يفكر في العراق عندما كتب "حروب السلام الوحشية" الذي عكس فيه الرؤية المشتركة التي يتقاسمها زملاؤه المحافظون الجدد، وانتقد إدارة بوش الأب لعدم مضيّها إلى النهاية في حرب الخليج الأولى سنة 1991. من غير المفاجئ إذاً أن يكون بوت من أكثر الداعمين المتحمسين للهجوم الأميركي على العراق، الذي ينطوي على "تغيير النظام" في بغداد.

إن من الصعب فعلاً، إن لم يكن من المتعذر، البحث في برنامج الإمبريالية الجديدة الذي يطرحه بوت في "حروب السلام الوحشية" من دون فهم الدور الذي قام به

المحافظون الجدد في تطوير السياسة الخارجية لإدارة بوش بشكل عام، وسياسة الشرق الأوسط بالتحديد. فالإمبريالية الجديدة هي، بطريقة ما، نتاج النظرية المحافظة الجديدة، كما طورها مفكرون في واشنطن ونيويورك، وفي الممارسة، كما نراها في سياسات فريق السياسة الخارجية للرئيس بوش، وخصوصاً البنتاغون. وقد أصبح كتاب بوت لازم القراءة ضمن هذه المجموعة، وساعد في وضع الأساس الفكري للاستراتيجيا التي استجرت الحرب على العراق وللسياسة الأميركية العدائية في الشرق الأوسط.

في أعقاب 11 أيلول/سبتمبر وما تلاه من حرب على الإرهاب، بما في ذلك النهوض إلى محاربة العراق، تمكن مفكرون ينتمون إلى المحافظين الجدد، من أمثال وليم كريستول وريتشارد بيرل وبول وُلفوفيتز، الذين يشغلون اليوم مناصب قيادية في السياسة الخارجية والأمن القومي في إدارة الرئيس بوش، أو يهيمنون على معظم منافذ وسائل الإعلام والمؤسسات الاستشارية التابعة للحزب الجمهوري، من النجاح (بمساعدة الدائرة الانتخابية اليمينية المسيحية القوية) في حمل الرئيس بوش على تطبيق البرنامج الإمبريالي الجديد في الشرق الأوسط. وأدى ذلك إلى تطورين دراماتيكيين: غزو العراق، والتحالف مع القوى القومية المتطرفة في إسرائيل؛ وهو ما وفر لحكومة شارون الضوء الأخضر لتحطيم السلطة الفلسطينية.

يبدو أن جورج دبليو بوش وبعض مستشاريه، ولا سيما صناع السياسة في البنتاغون، تبنوا الكذبة الليكودية بأن أسامة بن لادن وصدام حسين وياسر عرفات متحالفون سياسياً وعسكرياً، وأن المقاومة الفلسطينية للاحتلال الإسرائيلي ترتبط ارتباطاً مباشراً بالبرنامج الإسلامي الراديكالي، وبانتفاضة عالمية فعلاً. ويفترض أن هذه الأخيرة هي القوة الدافعة وراء الهجمات الإرهابية على مركز التجارة العالمي والبنتاغون، وأنها نمت من الكراهية العميقة للمثل الأميركية، وتلقى الدعم من الأنظمة القومية العربية مثل ذلك الموجود في بغداد ودمشق، أو من السلطة الفلسطينية. وهكذا فإن وقوع هجمات 11 أيلول/سبتمبر بعد أقل من عام على بدء الانتفاضة الثانية، عندما كانت إدارة بوش تحاول وضع النهج الخاص بها تجاه المشكلة الإسرائيلية – الفلسطينية وتجاه العراق، وفر الفرصة السياسية للمحافظين الجدد في الإدارة، مثل بول وُلفوفيتز نائب وزير الدفاع، ولحلفائهم في الكونغرس ووسائل الإعلام والمؤسسات الاستشارية، فتمكنوا في أعقاب تلك الهجمات من ترويج برنامجهم بنجاح؛ وهو البرنامج الذي يرى في السيطرة على العراق وحماية إسرائيل العنصرين المركزيين في استراتيجيا فرض الهيمنة الأميركية على الشرق الأوسط كوسيلة لإدامة الوضعية الأميركية أحادية القطب في أنحاء العالم كافة.

لا شك في أن كتاب بوت، الذي كُتب قبل 11 أيلول/سبتمبر، لا يتعامل مع هذه

التطورات، لكنه يستبقها. والإمبريالية الجديدة الطموحة التي يروجها لا تدعو إلى إنشاء نظام ديمقراطي وفدرالي في العراق فحسب، بل أيضاً إلى إعادة رسم الخريطة السياسية للشرق الأوسط بأكمله. ويشتمل ذلك على التخلص من النظام البعثي في دمشق، والملالي في إيران، والوهابيين في الرياض – إضافة إلى استمرار الوجود العسكري الأميركي في أفغانستان والبلقان وآسيا الوسطى وأجزاء أُخرى من هلال عدم الاستقرار الذي يمتد من البلقان إلى حدود الصين. ويقضي الهدف الرئيسي للإمبريالية الجديدة بإنشاء سلسلة من المحميات التي يسيطر عليها الجيش الأميركي في الشرق الأوسط وأطرافه بطريقة تخدم المصالح الأميركية والإسرائيلية في المنطقة. وهذه المصالح متطابقة وفقاً للعقيدة الإمبريالية الجديدة – أي أن ما هو جيد لإسرائيل جيد لأميركا، والعكس بالعكس. لقد تعامل المفكرون الإمبرياليون الجدد مع أي تشكيك في هذه العقيدة على أنه يتجاوز الخطاب المسموح به، وسعوا على الفور، عن طريق الغمز، لوصم مثل هؤلاء المشككين بأنهم "معادون للسامية".

وقد كتب عالم السياسة في جامعة هارفرد، ستانلي هوفمان، بشكل مقنع في هذا الخصوص:

"هناك الآن مجموعة فضفاضة من أصدقاء إسرائيل، الذين يؤمنون بتطابق المصالح بين الدولة اليهودية والولايات المتحدة، تقول إنهما ديمقراطيتان محاطتان بالأعداء، وكلتاهما مجبرة على الاعتماد على القوة العسكرية للبقاء... وينظر هؤلاء المحافظون الجدد إلى السياسة الخارجية من خلال عدسة شاغل وحيد مهيمن: هل هي في مصلحة إسرائيل أم ضدها؟ ومنذ إنشاء هذه الدولة في سنة 1948، لم يكتسب هؤلاء المفكرون نفوذاً قوياً في وزارة الخارجية، لكنهم الآن مستقرون بشكل مريح جداً في وزارة الدفاع حول استراتيجيين من أمثال بول وُلفوفيتز وريتشارد بيرل ودوغلاس فيث."

ويتابع هوفمان قائلاً إن "أحد العناصر التي تزيد في جاذبية شن حرب مبكرة على العراق بالنسبة إلى هؤلاء الصقور في إدارة بوش، هو أن هذه الحرب ستؤجل حل المشكلة الفلسطينية وتزيد في صعوبة وضع حل محايد لها."* ومن منظور هؤلاء الصقور، أصبحت مسلّمة المحافظين الجدد، التي تفترض التطابق بين المصالح الأميركية والإسرائيلية، أقوى وأكثر أهمية. فما هو لمصلحة أميركا الإمبريالية صالح لإسرائيل الكبرى، والعكس بالعكس. ومن ثم جاء رأي بعض المحافظين الجدد في أن تحدي المشروع الإمبريالي الجديد في الشرق الأوسط، بدءاً بغزو العراق، ليس أكثر من

(*) Stanley Hoffman, "The High and the Mighty: Bush's National-Security Strategy and the New American Hubris," *The American Prospect*, 13, no. 24 (2003).
متوفرة على الإنترنت في الموقع: www.prospect.org/

انعكاس للمواقف المعادية لإسرائيل، إذا لم تكن المعادية للسامية.

الانقسام الثقافي
الأوروبي – الأميركي

ليس من المفاجئ أن يقود المنظرون الأيديولوجيون للمحافظين الجدد، مثل وليم كريستول وروبرت كاغان، الهجوم الفكري على "الأوروبيين"، منذ بروز الاتحاد الأوروبي، ولا سيما فرنسا وألمانيا، كلاعب جغرافي سياسي مركزي مصمم على تحدي سياسة إدارة بوش بإقامة سلام أميركي. فالأوروبيون بمعارضتهم الهجوم على العراق، ودعوتهم إلى نهج محايد تجاه القضية الإسرائيلية – الفلسطينية، متهمون بأنهم لا يضمرون مشاعر معادية لأميركا فحسب، بل معادية لليهود أيضاً، كما لو أن خطاً مستقيماً يربط ألمانيا النازية وفرنسا فيشي بموقفي فرنسا وألمانيا الحاليين المعارضين لسياسة إدارة بوش في العراق ولمشروع حكومة شارون الاستيطاني. وهكذا فإن المنافذ الإعلامية المحافظة الجديدة، مثل "نيويورك بوست" و"ويكلي ستاندرد" و"ناشيونال رفيو" والصفحة الافتتاحية لجريدة "وول ستريت جورنال" – من دون ذكر تلفزة فوكس نيوز – توفر متنفساً لانتقادات مضادة لأوروبا تسيء إلى سمعة محور باريس – برلين ودول أُخرى متنوعة تنتمي إلى ما أشار إليه وزير الدفاع، دونالد رامسفيلد، مؤخراً بـ "أوروبا القديمة" وما يصوَّر على أنه "محور ابن عرس" و"الصغار الأوروبيون". فالأوروبيون، كما يراهم بوت وكاغان وغيرهما من المحافظين الجدد، ليسوا أكثر من استرضائيين وطفيليين وكارهين للأميركيين ومعادين للسامية، لا يخشون الوقوف في وجه صدام حسين فحسب، بل إنهم مصممون أيضاً على إنشاء كتلة أوروبية تهدف إلى تحدي القيم الأميركية والإضرار بالمصالح الأميركية. وقد أشار أحد كتّاب الافتتاحيات في "ناشيونال رفيو" إلى الفرنسيين بأنهم "قرود مستسلمة آكلة للجبن."

ويحاول كاغان، في كتابه "عن الجنة والقوة: أميركا في مقابل أوروبا في النظام العالمي الجديد" (*Of Paradise and Power...*)، تجاوز الجدال عبر الأطلسي بشأن الشرق الأوسط، وتقديم تفسير عام للتوترات الحالية بين الأميركيين والأوروبيين. وهو يتبنى مصطلحات وضعها معلّم الاعتماد على النفس، جون غراي، لوصف الاختلافات بين الرجال والنساء، ويعلن أن "الأميركيين متحدرون من المريخ والأوروبيين من الزهرة." والأوروبيون، كما يراهم كاغان وزملاؤه في حركة المحافظين الجدد، ليسوا أكثر من ذكور مخصيّين وعاجزين ومخنثين، في حين أن الأميركيين رجال حقيقيون يتميزون بالفحولة والصلابة، وجاهزون للقتال دفاعاً عن النساء ضد البرابرة الواقفين على الباب.

ولو استبعد المرء الصور الجنسية التي استخدمها كاغان لوصف الانقسام الأميركي – الأوروبي، لكان من غير المبالغة القول، كما قال كوبكان في كتاب "نهاية الحقبة الأميركية: سياسة الولايات المتحدة الخارجية والسياسة الجغرافية للقرن الحادي والعشرين" (*The End of the American Era...*)، إن الأميركيين والأوروبيين المعاصرين يبدون أنهم يقيمون ويعملون في عالمين ثقافيين منفصلين، ولعلهم يحلمون أحلاماً مختلفة. ووفقاً لكوبكان، يعيش الأوروبيون اليوم في فضاء "ما بعد قومي" وشديد العلمانية، حيث نادراً ما يلوّح أحدهم بعلم وطني ولا تؤَم الكنيسة إلاّ في المناسبات الخاصة. أمّا الأميركيون، في المقابل، فإنهم لا يزالون وطنيين، ولا يزال الإحساس بالقومية الأميركية و"الاستثنائية الأميركية" في طور الصعود منذ 11 أيلول/سبتمبر 2001. ووفقاً لاستطلاعات رأي حديثة، يعبّر أكثر من 90٪ من الأميركيين عن الفخر لكونهم مواطنين في الولايات المتحدة. وأصبح التلويح بالعلم "دارجاً" جداً، وخصوصاً في أوساط المتعلمين جيداً وأعضاء الطبقة العليا.

وبصورة عامة، يشعر الأميركيون بأن الهجمات الإرهابية غيّرت كل شيء وأنهم الآن في حالة حرب، في حين أن الأوروبيين، الذين خبروا الإرهاب في الماضي، غير راغبين في قبول هذا المنطق. كما أن المشاعر القومية في أوساط كثير من قطاعات المجتمع الأميركي تبدو متشابكة مع المعتقدات الدينية القوية. وقد خلص مسح القيم العالمية، الذي أجرته جامعة ميتشيغن مؤخراً، إلى أن المجتمع الأميركي أكثر "تقليدية" جداً (عندما يقاس بمستوى الالتزام بالدين والعائلة والبلد) من أي بلد أوروبي غربي باستثناء إيرلندا، وكل دول أوروبا الوسطى والشرقية. ولا يفسر ذلك السببَ الذي يجعل الأميركيين يلوّحون بالعلم ويؤمون الكنيسة أكثر من الأوروبيين فحسب، بل إنه يفسر أيضاً السبب الذي يدعو الأميركيين أكثر من الأوروبيين إلى معارضة الإجهاض ودعم الحد من التسلح وعقوبة الإعدام.

وهذه الاختلافات الثقافية، وفقاً لكوبكان، يمكن أن تفسِّر أيضاً سبب احتقار كثيرين من الأوروبيين، وخصوصاً في أوساط الطبقات المثقفة، "راعي البقر" جورج دبليو بوش، الحاكم السابق لولاية تكساس المحافظة جداً، والذي يجسد قيم أميركا الأكثر وطنية وتقليدية. كما تفسِّر سبب حب الأوروبيين أنفسهم لسلف بوش، بيل كلينتون، المراوغ والفاسق جنسياً والليبرالي سياسياً، الذي درس في إنكلترا وتنقل في أوروبا، وأعجب بالنموذج الألماني لـ "الرأسمالية الاجتماعية" ودولة الرفاه السويدية.

وبينما ينبري كاغان وغيره من المحافظين الجدد لجلد الثقافة السياسية الأوروبية باعتبارها رجعية ومتدهورة، وتعكس الانهيار التاريخي للقارة، يصفّق كوبكان للميزة الديمقراطية الاجتماعية والمسالمة للأوروبيين، ويتنبأ بأن تنتج هذه التوترات الثقافية السياسية عبر الأطلسي انقساماً رئيسياً في الغرب بين أميركا

وأوروبا ليس مغايراً للانقسام القديم بين روما وبيزنطة.

العامل الجغرافي – السياسي

ليس ثمة شك في أن التوترات القائمة بين الأميركيين والأوروبيين تعكس، كما يرى كاغان وكوبكان على السواء (وإن من منظورين مختلفين)، قيماً ثقافية عميقة الجذور. لكن إن طبّق المرء تحليلاً يستند أكثر إلى الواقعية السياسية، فإنه يمكن النظر إلى هذه التوترات على أنها تعكس اختلافات جدية بشأن قضايا السياسات الحقيقية، ولا سيما فيما يتعلق بالشرق الأوسط عامة، وبالسياسة المتبعة تجاه إسرائيل والعراق خاصة. وبعبارة أُخرى، حتى لو كان الأوروبيون أكثر "رجولة" (كما يرغب كاغان) وكان الأميركيون أكثر تقدمية من الناحيتين الاجتماعية والسياسية (كما يأمل كوبكان)، فإن الخلافات الأميركية والأوروبية بشأن الشرق الأوسط لن تختفي، إذ إنها تعكس مصالح استراتيجية ملموسة.

إن الشرق الأوسط بالنسبة إلى الأوروبيين هو ما تمثله المكسيك وأميركا الوسطى بالنسبة إلى الأميركيين: أي باحتهم الاستراتيجية الخلفية. ويعتمد الأوروبيون بالتأكيد على نفط الشرق الأوسط أكثر كثيراً من اعتماد الأميركيين عليه، ولديهم جوال كبيرة وناشطة من المسلمين المهاجرين. فليس من المفاجئ إذاً أن يكون للأوروبيين مصلحة في مسايرة المخاوف السياسية للمسلمين، وخصوصاً عندما يتعلق الأمر بالصراع الإسرائيلي – الفلسطيني. ومن ثم شعر الأوروبيون بالقلق من أن تؤدي الحرب على العراق إلى ظهور مشاعر مضادة للغرب بين العرب، ووجهوا انتقادات إلى انحياز واشنطن إلى إسرائيل الذي يعكس النفوذ السياسي الذي تتمتع به الجالية اليهودية الأميركية. وتعكس استطلاعات الرأي في أوروبا الغربية تعاطف الرأي العام السائد مع محنة الفلسطينيين.

إن المعضلة الرئيسية التي تواجه الاتحاد الأوروبي اليوم بينما يحاول أن يتحدى السياسة الأميركية في العراق وإسرائيل/فلسطين، كما يشير كاغان وكوبكان في كتابيهما، هي أن أعضاء الاتحاد الأوروبي يفتقرون إلى الموارد الدبلوماسية والعسكرية لعرض القوة الأوروبية في الشرق الأوسط أو على المسرح العالمي. ونتيجة تنامي الفجوة في القدرات العسكرية بين جانبي الأطلسي، تبقى أوروبا قزماً من الناحيتين الاستراتيجية والسياسية قياساً بالولايات المتحدة، حتى وإن برزت كعملاق اقتصادي. وهذا ما أدى إلى الإحباطات الأوروبية، بينما كانت فرنسا وألمانيا تضغطان على واشنطن كي لا تذهب إلى الحرب ضد العراق، وكي تمارس مزيداً من الضغط على إسرائيل. لكن الأوروبيين، من منظور واشنطن، يريدون أن يحصلوا على كعكتهم، وأن يأكلوها أيضاً، في حين يحجمون عن تخصيص شريحة أكبر من ناتجهم

القومي الإجمالي للدفاع، ويطالبون بدور دبلوماسي أكبر في الشرق الأوسط.

إن الافتقار إلى الرغبة من جانب الأوروبيين في تخصيص مزيد من الموارد لإعادة هيكلة قواتهم الدفاعية بطريقة تتيح لهم اتخاذ مواقف عسكرية أكثر حزماً، يعزز ما يرى كاغان وغيره من المحافظين الجدد أنه الاعتقاد الأميركي أن الأوروبيين أصبحوا ضعفاء فعلاً، وعديمي الأهمية، ومفتقرين إلى إرادة القتال دفاعاً عن مصالحهم، وميالين إلى استرضاء المعتدين من أمثال صدام حسين. وبالنظر إلى تراجع قوة الأوروبيين العالمية، يبدو أن الطريقة الوحيدة التي تمنحهم أي تأثير في الشؤون العالمية هي من خلال الأمم المتحدة وغيرها من المؤسسات متعددة الأطراف.

مع ذلك، يرفض كوبكان الصورة الأميركية عن أوروبا بأنها قوة سابقة، غنية بالتاريخ لكن مستقبلها فقير، ويتنبأ بأن الاتحاد الأوروبي سيبرز في الأعوام المقبلة كقوة اقتصادية ودبلوماسية – عسكرية رئيسية، فضلاً عن كونه نموذجاً بديلاً من الرأسمالية قادراً على تحدي الولايات المتحدة في الشرق الأوسط وغيره من الأماكن. غير أن كثيراً من تحليله في هذا الصدد غير مقنع، إذ ليس هناك أي دلائل ملموسة على أن الاتحاد الأوروبي يتخذ خطوات جادة للتغلب على ضعفه العسكري إزاء الولايات المتحدة. كما أن الأوروبيين يواجهون مشكلة قاعدة ديموغرافية متأكلة نتيجة تدني معدلات المواليد ومقاومة الهجرة. وفي هذه الأثناء، ينمو تعداد السكان الأميركيين طوال الوقت، إذ ينجب الأميركيون أطفالاً أكثر من الأوروبيين، ويفتحون أبوابهم أمام مزيد من المهاجرين، ومعظمهم لا يأتي من أوروبا وإنما من آسيا وأميركا اللاتينية.

والنتيجة هي أن الأمة الأميركية، ذات الولاءات السلفية لأوروبا بشكل رئيسي، آخذة في التغيُّر بفعل تدفق المهاجرين من أميركا اللاتينية وآسيا وارتفاع معدلات المواليد بينهم. ويتنبأ بعض المحللين بأن السكان المتحدرين من أصول أوروبية سوف يمثلون في النصف الثاني من هذا القرن أقل من 50٪ من سكان الولايات المتحدة، وبأن أميركا سوف تصبح أقل أوروبية وأكثر توجهاً نحو أميركا اللاتينية والمحيط الهادئ.

فرص الإمبراطورية الأميركية الجديدة

لكن هل تبقى أميركا الأكثر "لاتينية" وتوجهاً نحو المحيط الهادئ ملتزمة المحافظة على الإمبراطورية الأميركية في الشرق الأوسط؟ ثمة أدلة قليلة تدعم الفكرة العامة في أن الأميركيين المعاصرين سيكونون راغبين في دعم مشروع السلام الأميركي الطموح والمكلف، الذي يقترحه بوت وغيره من المحافظين الجدد. بل إن الأميركيين، خلافاً لأطروحة بوت، كانوا تقليدياً مستعدين لخوض الحروب استناداً إلى

قواعد ما يسمّى مذهب باول، الذي يفترض وجود خطر واضح وحاضر، ووجود حاجة إلى الدفاع عن المصالح القومية وإلى استراتيجيا خروج. إنهم يريدون أن تكون حروبهم مدمرة وقصيرة، ويريدون العودة إلى الوطن.

لقد وقع بعض "الحروب الصغيرة" التي يذكرها بوت في الجوار الاستراتيجي أو الباحة الخلفية للولايات المتحدة (المكسيك)، أو دفاعاً عن أرواح الأميركيين وأملاكهم (ثورة الملاكمين)، ولم تنطو على تكاليف باهظة. وشهدت الإدارات الأميركية التي لم تتمسك بهذه القواعد في تدخلاتها العسكرية (الفيليبين وكوريا وفيتنام) هبوطاً في دعم الرأي العام.

إضافة إلى ذلك، تفترض التدخلات العسكرية الأميركية الحديثة أن حلفاء أميركا العسكريين – مثل الأوروبيين في البلقان أو الأستراليين في تيمور الشرقية – راغبون في الالتزام "بتقسيم العمل"، حيث تقدّم الولايات المتحدة في الغالب القوة الجوية والاستخبارات العسكرية والدعم التكتيكي (وبعض القوات الأرضية في المرحلة الأولى من الحرب)، ويقدّم الحلفاء القوات اللازمة لحفظ الأمن في المحمية، فضلاً عن الدعم المالي (على سبيل المثال، من السعوديين واليابانيين في أثناء حرب الخليج الأولى).

هنا تكمن العقبة الرئيسية الثانية أمام الإمبراطورية الأميركية الدائمة: ما الذي يحدث عندما يرفض الحلفاء التزام هذه القواعد للعبة التدخلية، المفيدة للولايات المتحدة بفضل تفوقها النسبي في التكنولوجيا؟ وماذا يحدث عندما يكون على القوات الأميركية القيام بمهمات حفظ الأمن والقتال، كما في العراق (وإيران؟ وسورية؟). ربما يحتم ذلك على الأميركيين، في مرحلة ما، إعادة التجنيد الإجباري واختبار رغبة الأميركيين في الخدمة العسكرية بمثابة إمبرياليين جدد. كما أن التكاليف المالية للحفاظ على المحميات، في العراق وفي أنحاء أُخرى من الإمبراطورية الأميركية، يمكن أن تؤدي إلى تصاعد العجز وإضعاف الدولار الأميركي في حين يكسب الاتحاد الأوروبي والصين مزيداً من القدرة الاقتصادية.

لذا ربما لا يكون هناك حاجة إلى القلق بشأن الإمبريالية الأميركية الجديدة في النهاية. فهي تشير، على غرار "صرعات" السياسة الخارجية الأُخرى في الماضي، إلى بعض الاتجاهات الحقيقية في العلاقات الدولية. نعم، لقد كان كنيدي محقاً في الإشارة إلى تكاليف الامتداد الإمبريالي. نعم، كما يرى فوكوياما، لقد انتهت الحرب الأهلية الأيديولوجية في الغرب بسقوط الشيوعية. نعم، لقد أدرك هنتنغتون أهمية الثقافة عندما رأى أنها ستصبح متغيِّراً مهماً في الصراعات العالمية المقبلة. نعم، لقد وفّر فريدمان وغيره من أنبياء العولمة بعض التحليل القيّم بشأن دور العولمة في تعديل التصورات التقليدية للقوة الدولية.

وعلى غرار ذلك في هذه الكتب الحديثة، يسلط بوت فعلاً الضوء على بعض

الضغوط التي ستواجهها الولايات المتحدة، باعتبارها المهيمنة الحالية، عند توسيع دورها الدولي، بينما يشير كاغان وكوبكان إلى بعض نواحي الانقسام عبر الأطلسي المثيرة للاهتمام.

مع ذلك، كان لصراعات السياسة الخارجية ونماذجها كثير من العيوب في الغالب الأعم، وعلى صناع السياسة التعامل معها بالتشكيك الذي تستحقه. لقد أدى التمدد الإمبريالي الأميركي والسوفياتي إلى نتائج مختلفة تماماً؛ ولم يضع انهيار الشيوعية حداً للصراعات الأيديولوجية؛ والثقافة هي العامل الوحيد بين كثير من العوامل التي تفسر سلوك اللاعبين الدوليين. بل حتى الدول التي يوجد فيها مكدونالد يمكن أن تتحارب.■

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar/mdf